ما الذي نحتاج إليه؟

obeikandl.com

obeikandl.com

أمنية عمرية
أو: حاجتنا إلى رجال

في دار من دور المدينة المباركة جلس عمر إلى جماعة من أصحابه فقال لهم: تمنوا، فقال أحدهم: أتمنى لو أن هذه الدار مملوءة ذهباً أنفقه في سبيل الله، ثم قال عمر: تمنوا، فقال رجل آخر: أتمنى لوأنها مملوءة لؤلؤاً وزبرجداً وجوهراً أنفقه في سبيل الله وأتصدق به، ثم قال: تمنوا، فقالوا: ما ندري ما نقول يا أمير المؤمنين؟

فقال عمر: ولكني أتمنى رجالاً مثل أبي عبيدة بن الجراح، ومعاذ بن جبل، وسالم مولى أبي حذيفة فأستعين بهم على إعلاء كلمة الله.

رحم الله عمر الملهم، لقد كان خبيراً بما تقوم به الحضارات الحقة، وتنهض به الرسالات الكبيرة، وتحيا به الأمم الهامدة.

إن الأمم والرسالات تحتاج إلى المعادن المذخورة، والثروات المنشورة، ولكنها تحتاج قبل ذلك إلى الرؤوس المفكرة التي تستغلها، والقلوب الكبيرة التي ترعاها والعزائم القوية التي تنفذها: إنها تحتاج إلى الرجال.

الرجل أعز من كل معدن نفيس، وأغلى من كل جوهر ثمين؛ ولذلك كان وجوده عزيزاً في دنيا الناس، حتى قال رسول الله ﷺ: «إنها الناس كإبل مئة لا تكاد تجد فيها راحلة»(١).

الرجل الكفء الصالح هو إكسير الحياة، وروح النهضات، وعماد

(١) متفق عليه من حديث ابن عمر.

الرسالات، ومحور الإصلاح.

أعد ما شئت من معامل السلاح والذخيرة، فلن تقتل الأسلحة إلا بالرجل المحارب، وصغ ما شئت من القوانين واللوائح، فستظل حبراً على ورق ما لم تجد الرجل الذي ينفذها، وضع ما شئت من مناهج للتعليم والتربية، فلن يغني المنهج إلا بالرجل الذي يقوم بتدريسه، وأنشىء ما شئت من لجان، فلن تنجز مشروعاً إذا حرمت الرجل الغيور!!

ذلك ما يقوله الواقع الذي لا ريب فيه.

إن القوة ليست بحد السلاح بقدر ما هي في قلب الجندي، والعدل ليس في نص القانون بقدر ما هو في ضمير القاضي، والتربية ليست في صفحات الكتاب بقدر ما هي في روح العالم، وإنجاز المشروعات ليس في تكوين اللجان بقدر ما هو في حماسة القائمين عليها.

فللّه ما أحكم عمر حين لم يتمن فضة ولا ذهباً، ولا لؤلؤاً ولا جوهراً، ولكنه تمنى رجالاً من الطراز الممتاز الذين تتفتح على أيديهم كنوز الأرض، وأبواب السماء.

إن رجلاً واحداً قد يساوي مئة، ورجلاً قد يوازي ألفاً، ورجلاً قد يزن شعباً بأسره، وقد قيل: رجل ذو همة يحيى أمة.

حاصر خالد (الحيرة) فطلب من أبي بكر مدداً، فما أمده إلا برجل واحد هو القعقاع بن عمرو التميمي، وقال: لايهزم جيش فيه مثله، وكان يقول: لصوت القعقاع في الجيش خير من ألف مقاتل!

واستمد عمرو بن العاص - وهو في مصر - عمر بن الخطاب فبعث إليه بأربعة آلاف، على رأسهم أربعة من رجالات الإسلام، عد كل واحد منهم بألف رجل.

ولكن ما الرجل الذي نريد؟ هل هو كل من طر شاربه، ونبتت لحيته من بني الإنسان؟ إذن فما أكثر الرجال !!

إن الرجولة ليست بالسن المتقدمة، فكم من شيخ في سن السبعين وقلبه في سن السابعة، يفرح بالتافه، ويبكي على الحقير،ويتطلع إلى ما ليس له، ويقبض على ما في يده قبض الشحيح حتى لا يشركه غيره، فهو طفل صغير، ولكنه ذو لحية وشارب، وكم من غلام في مقتبل العمر، ولكنك ترى الرجولة المبكرة في قوله وعمله وتفكيره وخلقه.

مر عمر على ثلة من الصبيان يلعبون فهرولوا، وبقي صبي مفرد في مكانه، هو عبد الله بن الزبير، فسأله عمر: لِمَ لم تعد مع أصحابك؟ فقال: يا أمير المؤمنين، لم أقترف ذنباً فأخافك، و لم تكن الطريق ضيقة فأوسعها لك!

ودخل غلام عربي على خليفة أموي يتحدث باسم قومه، فقال له: ليتقدم من هو أسن منك، فقال: يا أمير المؤمنين، لو كان التقدم بالسن لكان في الأمة من هو أولى منك بالخلافة.

أولئك لعمري هم الصغار الكبار، وفي دنيانا ما أكثر الكبار الصغار !!

وليست الرجولة ببسطة الجسم، وطول القامة، وقوة البنية، فقد قال الله عن طائفة من المنافقين: ﴿**وإذا رأيتَهم تعجبُك أجسامُهم**﴾[المنافقون: ٤] ومع هذا فهم ﴿**كأنَّهُم خُشُبٌ مسنَّدَةٌ يحسَبُون كلَّ صيحةٍ عليهم**﴾[المنافقون: ٤]،

وفي الحديث الصحيح: «يأتي الرجل العظيم السمين يوم القيامة فلا يزن عند الله جناح بعوضة، اقرؤوا إن شئتم قوله تعالى: ﴿**فلا نقيمُ لهم يومَ القيامةِ وزناً**﴾»(١).

كان عبد الله بن مسعود نحيفاً نحيلاً، فانكشفت ساقاه يوماً ـ وهما دقيقتان هزيلتان ـ فضحك بعض الصحابة: فقال الرسول: «أتضحكون من دقة ساقيه؟ والذي نفسي بيده لهما أثقل في الميزان من جبل أحد»(٢).

ليست الرجولة بالسن ولا بالجسم ولا بالمال ولا بالجاه، وإنما الرجولة قوة نفسية تحمل صاحبها على معالي الأمور، وتبعده عن سفسافها، قوة تجعله كبيراً في صغره، غنياً في فقره، قوياً في ضعفه، قوة تحمله على أن يعطي قبل أن يأخذ، وأن يؤدي واجبه قبل أن يطلب حقه: واجبه نحو نفسه، ونحو ربه، ونحو بيته ودينه وأمته.

الرجولة بإيجاز: هي قوة الخلق وخلق القوة.

إن خير ما تقوم به دولة لشعبها، وأعظم ما يقوم عليه منهج تعليمي، وأفضل ما تتعاون عليه أدوات التوجيه كلها من صحافة وإذاعة، ومسرح وخيالة، ومسجد ومدرسة، هو صناعة هذه الرجولة، وتربية هذا الطراز من الرجال.

---

(١) رواه البخاري من حديث أبي هريرة في كتاب التفسير (٤٧٢٩)، ومسلم في صفات المنافقين (٢٧٨٥/ ١٨)، والآية من سورة الكهف: ١٠٥.

(٢) رواه أحمد في مسنده عن زر بن حبيش عن عبد الله بن مسعود ١/٤٢٠، ٤٢١، وقال العلامة أحمد شاكر: إسناده صحيح، وهو في مجمع الزوائد ٩/٢٨٩ وقال: رواه أحمد وأبو يعلى والبزار والطبراني من طرق ٦٠/٣٩ (٣٩٩٢).

ولن تترعرع الرجولة الفارغة، ويتربى الرجال الصالحون، إلا في ظلال العقائد الراسخة، والفضائل الثابتة، والمعايير الأصيلة، والتقاليد المرعية، والحقوق المكفولة، أما في ظلام الشك المحطم، والإلحاد الكافر، والانحلال السافر، والحرمان القاتل، فلن توجد رجولة صحيحة، كما لاينمو الغرس إذا حرم الماء والهواء والضياء.

ولم تر الدنيا الرجولة في أجلى صورها وأكمل معانيها كما رأتها في تلك النماذج الكريمة التي صنعها الإسلام على يد رسوله العظيم، من رجال يكثرون عند الفزع، ويقلون عند الطمع لا يغريهم الوعد ولا يلينهم الوعيد، لا يغرهم النصر، ولا تحطمهم الهزيمة:

من الرجال المصابيح الذين همو ... كأنهم من نجوم حية صنعوا

أخلاقَهم نورهم، من أي ناحية ... أقبلت تنظر في أخلاقهم سطعوا

أما اليوم، وقد أفسد الاستعمار جو المسلمين بغازاته السامة الخانقة من إلحاد وإباحية، فقلما ترى إلا أشباه الرجال، ولا رجال.

أعجبتني وآلمتني كلمة لرجل درس تعاليم الإسلام السمحة الشاملة فقال في إعجاب مرير: (يا له من دين لو كان له رجال)!

وهذا الدين الذي يشكو قلة الرجال يضم خمس مئة[1] مليون ينتسبون إليه، ويحسبون عليه، ولكنهم ـ كما قال رسول الله ﷺ ـ «غثاء كغثاء

(١) كان هذا هو تعداد المسلمين حين كتب هذا المقال سنة ١٩٥٦م، أما اليوم فقد أربى عددهم على المليار.

السيل»[1]، أو كما قال الشاعر:

يثقلون الأرض من كثرتهم ثم لا يغنون في أمر جلل

وماذا يغني عن الإسلام رجال أهمتهم أنفسهم، وحكمتهم شهواتهم، وسيرتهم مصالحهم. رجال يعتقدون أن شعوبهم مجموعة من الأصفار لا يصلحون إلا أتباعاً، ولا يحيون إلا أذناباً، فلا وثقوا بأنفسهم، ولا اعتمدوا على ربهم. رجال يجمعهم الطمع، ويفرقهم الخوف، أو كما قيل: يجمعهم مزمار وتفرقهم عصا! رجال كأنهم صنعوا من زجاج، فلا يستر عورة، ولا يتحمل رمية حصاة؟

أما والله لو ظفر الإسلام في كل ألف من أبنائه برجل واحد فيه خصائص الرجولة، لكان ذلك خيراً له وأجدى عليه من هذه الجماهير المكدسة التي لا يهابها عدو، ولا ينتصر بها صديق:

فليت لي بهمو قوماً إذا ركبوا شنوا الإغارة فرساناً وركباناً

لا يسألون أخاهم حين يندبهم في النائبات على ما قال برهاناً

(١) من حديث رواه أحمد وأبو داود عن ثوبان.

القوة التي لا تغلب

قال الطالب لأستاذه المربى: خبرني عن أعظم قوة عرفها الإنسان منذ فجر التاريخ، لا شك أنك تعتقد مثلي أنها قوة الصاروخ والقنبلة الذرية؟

قال الأستاذ المعلم: مهلاً أيها الفتى الطالب، لا تسألني وتعجل بالجواب قبلي.

قال الطالب: معذرة يا أستاذي، إني أريد أن أسمع منك.

قال الأستاذ: دعني أسألك سؤالاً آخر: أيهما أعظم قوة: القنبلة والصاروخ، أم الذي صنع القنبلة وأطلق الصاروخ؟

قال الفتى: لا شك أن صانع القنبلة ومطلق الصاروخ أقوى منهما!!

قال الأستاذ: إذن فأنت معي أن قوة الإنسان أعظم من كل قوة مادية في الأرض.

قال الطالب: نعم. فالإنسان هو الذي يسخر المادة لمنفعته، ويوجهها لما يريد.

قال الأستاذ المربي: فإذا وجدت قوة توجه الإنسان وتدفعه إلى الأمام، وتحفزه إلى العمل الدائب، وتقذف به كالقنبلة، أو أقوى، وتطلقه كالصاروخ، أو أشد؟!

قال الطالب في عجلة: إنها لا شك تكون أعظم قوة عرفها الإنسان في هذه الأرض، فما هي هذه القوة؟ وما حقيقتها؟لقد شوقتني إليها بحديثك عنها!!

قال الأستاذ المربي: إنها يا بني قوة الإيمان.

قال الفتى الطالب: الإيمان بأي شيء؟ فإن بعض الناس يجعلون الإيمان بأي مبدأ هو الإيمان.

قال الأستاذ: لا أنكر أن مطلق الإيمان بأي معتقد كان يعطي صاحبه قوة وصلابة، وكان يظهر ذلك في الصراع بين الأفراد والجماعات، فالفرد الذي يؤمن بعقيدة ما ينتصر على الفارغ الذي لا عقيدة له، والجماعة التي ترتكز حياتها على إيمان ما ـ ولو لم تكن له أسس مفهومة ـ تنتصر في النهاية على

الجماعة الخاوية من الاعتقاد، ولكن الإيمان الذي أعنيه هو الإيمان با لله واهب الحياة، وخالق الكون والإنسان، الإيمان بالجزاء والخلود في حياة باقية توفى فيها كل نفس ما عملت وهم لايظلمون، الإيمان بعالم فسيح غير منظور، مليء بجند ا لله لايحصى لهم عدد، إنهم الملائكة المقربون، الإيمان بالوحي الإلهي، وهو الصلة التي تربط السماء بالأرض، ومظهر هداية الخالق للخلق، الإيمان بالنماذج الإنسانية العليا، أولئك هم النبيون الذين أنزل ا لله عليهم وحيه، ليخرجوا الناس من الظلمات إلى النور، بإذن ربهم إلى صراط العزيز الحميد.

الإيمان بأن الكون لا يسير جزافاً، ولا تمضي حوادثه بغير هدي ولا تقدير، بل كل شيء فيه يقدر، وكل صغير وكبير مستطر.

الإيمان بكرامة الإنسان الذي استخلفه ا لله في الأرض واستعمره فيها، وابتلاه بالتكليف في دار الدنيا، ليصهره ويعده للخلود في الدار الآخرة.

ذلك يا بني هو الإيمان الذي دعا إليه النبيون والمرسلون، وجاهد في سبيله الصديقون والشهداء والصالحون، وهو المعنى الفذ الذي نريده من كلمة (الإيمان). إنّه الإيمان كما جاء به الإسلام. واسترسل الأستاذ يتحدث، والطالب الفتى يصغي إليه في شوق ولهفة: هذا الإيمان يا بني، قوة دافعة موجهة، قوة تسند الضعيف أن يسقط، وتمسك القوي أن يجمح، وتعصم الغالب أن يطغى، وتمنع المغلوب أن ييأس وينهار!

قال الطالب الفتى: لكنك يا أستاذي حدثتنا من قبل أن في الإنسان قوة أخرى عاتية شديدة العتو والجبروت، تلك هي قوة الغرائز، كغريزة حب البقاء، وغريزة الشهوة الجنسية، وغريزة الغضب والمقاتلة.

قال الأستاذ الشيخ: أجل يا بني، أنا لم أنس حديثي هذا، ولا أنكر أن

للغرائز البشرية سطوتها وقوتها، ولكنها بجوار الإيمان تفقد سيطرتها، وتنحل عقدتها، وتنحني مطواعة لقوة الإيمان، فالإيمان هو السيد الآمر المطاع، والغرائز هي الخادمة المنقادة له، المسخرة بأمره. أتريد أن أضرب لك مثلاً من التاريخ.

قال الطالب: نعم. فقد حفظنا عنك (بالمثال يتضح المقال).

قال الأستاذ: هل أتاك حديث سيدنا يوسف الصديق، لابد أنك سمعت قصته في سورة يوسف في القرآن الكريم، إنها قصة شاب مؤمن أخضع غريزته لإيمانه، فخلد الله ذكره، وسجل قصته لتكون هدى ونبراساً للآخرين.

يوسف شاب في ريعان الشباب ومقتبل العمر، أوتي من الشباب والجمال حظاً كبيراً، وامتلأ فتوة ونضرة ونشاطاً، وقدر القدر له أن يبتلي بالخدمة في بيت امرأة عزيز مصر، ولكن شبابه وجماله أغرى به المرأة التي هو في بيتها، فراودته عن نفسه وغلقت الأبواب، وقالت: هيت لك! كان الموقف دقيقاً ولا ريب، فإن الفتنة التي عرضت ليوسف لم تكن من الفتن التي تعرض للمرء ساعة في حياته ثم تزول، إنما هي فتنة تصابحه وتماسيه، وتراوحه وتغاديه، لم تكن فتنة امرأة من بنات الليل وبائعات الهوى، بل كانت فتنة امرأة ذات منصب وجمال وحيلة ومقدرة، وهي سيدة البيت، وامرأة العزيز، وهو: غلام شري بثمن بخس دراهم معدودة، لا يعرف له أهل ولا بيت، مجرد خادم في بيتها، من شأنه أن يؤمر فيأتمر .. فماذا صنع الفتى يوسف أمام هذا الإغراء وأمام هذه الفتنة؟

قال الفتى الطالب لأستاذه: هذا والله يا أستاذ موقف صعب وامتحان رهيب لإيمان يوسف.

قال الأستاذ: أجل كان الامتحان عسيراً، ولكنه انتهى بنجاح يوسف، كان صوت الغريزة القوي يدعوه أن يهم بها كما دعا المرأة أن تهم به، ولكن صوت

الإيمان في ضميره كان أقوى، لقد زجرها بهذه الكلمات الواعية حين قال: ﴿**معاذَ ا لله إنَّه ربِّي أحسنَ مثوايَ إنه لايفلحُ الظالمونَ**﴾[يوسف: ٢٣].

ولقد حاولت المرأة مرة أخرى أن تمكر به وتجبره على قبول رغبتها الآثمة أمام نسوتها قائلة: ﴿**ولقد راودتُّه عن نفسِه فاستعصَم ولئن لم يفعلْ ما آمرُه ليُسْجنَنَّ وليكوناً من الصاغِرينَ**﴾[يوسف: ٣٢].

وكان يوسف بين محنتين: أن يمتحن في دينه فيقع في الفاحشة والإثم المبين، أو يمتحن في دنياه وحريته فيسجن ويكون من الصاغرين.

قال الطالب في لهفة: فماذا اختار يوسف؟!

قال الأستاذ: لقد هداه منطق الإيمان أن يؤثر سلامة دينه على سلامة دنياه. فدعا ربه كما حدثنا القرآن قائلاً: ﴿**ربِّ السجْنُ أحبُّ إلى مما يدعونَني إليهِ وإلا تصرفْ عنِّي كيدَهُنَّ أَصْبُ إليهنَّ وأكُنْ من الجاهلينَ**﴾[يوسف: ٣٣].

قال الطالب لأستاذه: وماذا حدث ليوسف بعد ذلك؟

قال الأستاذ: استجاب له ربه فصرف عنه كيدهن، وسلم له دينه الذي حرص عليه، أما دنياه فلم تسلم، فقد سجنوه ظلماً، ولبث في السجن بضع سنين، بيد أن ظلمة السجن لم تطفئ النور الذي في قلبه، ولم تنسه أنه مؤمن صاحب رسالة، فظل في السجن يدعو إلى توحيد ا لله، وينفر رفقاءه في السجن من الوثنية المحرفة، وينتهز الفرصة لذلك كلما سنحت، كما قال للفتيين اللذين سألاه في تأويل حلم أو تفسير رؤيا، فأنبأهما بعض ما علمه ا لله من الغيب ثم قال: ﴿**ذلكُما مما علَّمني ربي إنِّي تركْتُ ملةَ قومٍ لا يؤمنونَ با للهِ وهُم بالآخرةِ هُمْ كافرون * واتبعتُ ملّة آبائي إبراهيمَ وإسحاقَ ويعقوب ما كانَ لنا أن**

نشركَ با للهِ من شيءٍ ذلكَ من فضلِ ا للهِ عَلينا وعلى الناسِ ولكنَّ أكثرَ النـاسِ لايشكرون * يا صاحبيِّ السجنِ أأربابٌ متفرِّقون خيرٌ أم ا للهُ الواحدُ القهارُ * ما تعبدون من دونه إلا أسماءَ سميتموها أنتم وآباؤُكم ما أنـزلَ ا للهُ بها مِن سلطانٍ إنِ الحكمُ إلا للهِ أمرَ ألا تعبدوا إلا إيَّاهُ ذلك الدينُ القيـمُ ولكـنَّ أكثرَ الناسِ لا يَعلمونَ﴾[يوسف: ٣٧-٤٠].

قال الطالب: وماذا كانت عاقبة هذا السجين المؤمن؟

قال الأستاذ: إن العاقبة يا بني دائماً للمؤمنين المتقين، هذه سنة ا لله، ولـن تجد لسنة ا لله تبديلاً ولا تحويلاً، لقـد احتـاج القـوم إليـه احتيـاج الجـاهل إلى العالم، والمريض إلى الطبيب، والملاح التائه إلى النجم الهادي، فلـم يجـدوا بـداً من أن يذهبوا إليه صاغرين، ويطلقوا سراحه، وهو يأبى أن يخرج من السجن إلا بعد أن تظهر براءة صفحته أولاً .. وخرج من السجن نقي الذيل، مرفوع الرأس، ناصع الجبين: **﴿وقالَ المِلكُ ائتوني به أستخلِصْهُ لنفْسِي فلمَّـا كلَّمَـه قال إنَّك اليومَ لدينا مكـينٌ أمـينٌ * قـال اجعلـني علـى خزائـنِ الأرضِ إنـي حفيظٌ عَليمٌ * وكذلـك مكَّنَّـا ليوسـفَ في الأرضِ يتبـوأ منهـا حيـثُ يشـاءُ نصيبُ برحمتِنا من نشاءُ ولا نضيعُ أجرَ المحسنينَ﴾**[يوسف: ٥٤-٥٦].

وأصبح سجين مصر بـالأمس عزيزهـا اليـوم، والمتصـرف في مالياتهـا وتموينها إبان أزمة ومجاعة اجتاحت مصر وما جاورها من الأقطار.

وكان هذا المنصـب امتحانـاً آخـر لإيمـان يوسـف، فـإن الإنسـان يمتحـن بالنعمة كما يمتحن بالمصيبة.

قال الطالب: وكيف يمتحن بالنعمة والامتحان إنما هو ابتلاء؟

قال الأستاذ: أما سمعت قول ا لله عـز وجـل: **﴿ونبلوَكُـم بالشـرِّ والخـيرِ**

فتنةً﴾[الأنبياء: ٣٥]. إن بعض الناس قد يملك نفسه عند الشدة فيصبر ولا يجزع، فإذا امتحن بالنعمة بطر واستكبر وركبه الغرور، ولكن يوسف الذي صار عزيزاً، لم يتغير عن يوسف الذي كان سجيناً.

إنه ملك الدنيا ولكنها لم تملكه، وسيطر على خزائن مصر، ولكنها لم تسيطر على قلبه، لقد كان إذا وضع أمامه الطعام أكل منه لقيمات تقيم الأود ولا يشبع، فلما سئل عن ذلك قال: أخاف إذا شبعت أن أنسى جوع الفقراء!

ومرة أخرى ظهر إيمان يوسف الصديق حين تمكن من أخوته لأبيه أولئك الذين أرادوا أن يقتلوه ليخلو لهم وجه أبيهم، ثم ألقوه في غيابة الجب، ثم باعوه بثمن بخس دراهم معدودة، وعرضوه للذل والعبودية.

لقد جاؤوا مصر من فلسطين يطلبون المدد والزاد، وقدر يوسف على الانتقام منهم، ولكنه عفا وغفر وقال: ﴿**لا تثريبَ عليكُم اليومَ يغفرُ اللهُ لكُم وهو أرحمُ الراحمينَ**﴾[يوسف: ٩٢].

وبعد أن تمهدت ليوسف الوزارة والرئاسة، وقرت عينه بوصول أبويه وإخوته؛ تطلعت نفسه التواقة إلى ما هو أعز من الوزارة وأبقى من الملك - إلى رضوان الله تعالى، والسعادة بلقائه في دار الخلود، فتوجه إلى الله بدعائه المأثور: ﴿**ربِّ قد آتيتَني مِن الملكِ وعلَّمتَني من تأويلِ الأحاديثِ فاطرَ السمواتِ والأرضِ أنتَ وليِّي في الدنيا والآخرةِ توفني مسلما وألحقْني بالصَّالحينَ**﴾[يوسف: ١٠١].

ذلك يا بني نموذج من نماذج الإيمان القوي، فيه أسوة للشباب، وعبرة لأولى الألباب، وحجة على الجاحدين، وهدى ورحمة لقوم يؤمنون.

هل نحن مؤمنون؟

سألني صاحبي وهو مسلم مثقف، له إلمام بالمعرفة الدينية فقال: هل يناقض كلام العاقل فعله؟ قلت: لا، ما دام واعياً لكلامه، قاصداً لفعله. ولِمَ هذا لسؤال؟

قال: هذا السؤال مقدمة السؤال آخر طالما ألح على فكري، وحاولت أن أجد له جواباً، ولعلي الآن أجد عندك الجواب الشافي.

قلت: وما سؤالك؟

قال: أليس القرآن كلام الله تعالى؟

قلت: بلى.

قال: أليس ما يجري في هذا الوجود فعل الله تعالى؟

قلت: بلى.

قال: فلِمَ نرى الواقع في هذا الوجود يناقض المسطور في كتاب الله؟

قلت: هذا لا يحدث، فسر لي ما تقول.

قال: نحن نقرأ في القرآن قول الله تعالى: ﴿**وكانَ حقّاً علينا نصرُ المؤمنينَ**﴾[الروم: ٤٧]، وتقرأ في صفحة الواقع أن المؤمنين مخذولون مستضعفون، وتقرأ قوله سبحانه وتعالى: ﴿**ولله العزَّةُ ولرسوله وللمؤمنينَ**﴾[المنافقون: ٨]، ونرى في الواقع أن المؤمنين أذلاء مستعبدون، ونقرأ قوله تعالى: ﴿**ولَنْ يجعلَ اللهُ للكافرينَ على المؤمنينَ سبيلاً**﴾[النساء: ١٤١] ولكنا ننظر حولنا فنرى للكافرين ألف سبيل وسبيلاً، وقرأ آيات أخر

obeikandl.com

مثل: ﴿**إن الله يدافِعُ عنِ الذينَ آمنوا**﴾[الحج: ٣٨]، ﴿**ذلك بأنَّ الله مولى الذينَ آمنوا**﴾[محمد: ١١] ، ﴿**وأنَّ الله معَ المؤمنينَ**﴾[الأنفال: ١٩]، إلى غير ذلك من الآيات.. ومع هذا نجد القوة والسيادة والمجد من نصيب الكفرة والملحدين، والضعف والتخلف والهوان من نصيب المؤمنين! فما تفسير ذلك، وما تأويله؟

قلت: إن تأويل هذه الآيات بين غاية البيان، إن كل ما ضمنته هذه الآيات من النصر والعزة والسيادة والتأييد الإلهي إنما ضمنته للمؤمنين، ولم تضمنه لكل من يدعون الإيمان، ويتسمون بأسماء أهل الإسلام، فالمدار على المسميات لا على الأسماء، والعبرة بالحقائق لا بالدعاوي.

قال صاحبي: أفهم من هذا أننا لسنا مؤمنين؟

قلت: إذا كان الإيمان هو النطق بالشهادتين، والمحافظة على بعض شعائر الإسلام، فنحن مؤمنون، وإن كان الإيمان هو التحقق بالأوصاف التي ذكرها القرآن للمؤمنين، فبيننا وبين إيمان القرآن مراحل ومراحل.

إن المؤمنين الذين تكفل الله لهم بالنصر والمعونة والتأييد ـ في آيات كتابه ـ لهم صفات ذكرها القرآن نفسه، جلّى بها عقائدهم وأعمالهم وأخلاقهم، التي استحقوا لها تكريم الله تعالى دعوته وتسديده، وليس من الإنصاف أن نذكر ما وعد الله به المؤمنين في القرآن، ثم نطلب تفسير المؤمنين من غير القرآن.

قال صاحبي: بلى، والله، فبين لي من هم المؤمنون في نظر القرآن؟

قلت: استمع إلى هذه الآيات النيرة من كتاب ربك: ﴿**إنَّما المؤمنونَ الذينَ إذا ذُكرَ الله وجِلَت قلوبُهم وإذا تُلِيَت عليهم آياتُه زادتهم إيماناً**

وعلى ربِّهم يتوكلون ۞ الذين يقيمونَ الصلاةَ ومِمَّا رزقناهم ينفقون ۞ أولئكَ همُ المؤمنونَ حقّاً﴾[الأنفال: ٢-٤] ؛ ﴿**قد أفلحَ المؤمنونَ ۞ الذين هم في صلاتِهِم خاشِعُونَ ...**﴾[المؤمنون: ١-٢].

﴿**والمؤمنونَ والمؤمناتُ بعضُهم أولياءُ بعضٍ يأمرُون بالمَعْروفِ وينهونَ عنِ المنكرِ...**﴾[التوبة: ٧١]، ﴿**إنما المؤمنونَ إخوةٌ فأَصْلِحوا بينَ أَخَوَيْكُم**﴾[الحجرات: ١٠]، ﴿**إنما المؤمنونَ الذينَ آمَنوا باللهِ ورسولِه ثمَّ لَمْ يرتَابوا وجَاهَدُوا بأموالِهم وأنفسِهم في سبيلِ اللهِ أولئكَ همُ الصادقونَ**﴾[الحجرات: ١٥]، ﴿**إنما كانَ قولَ المؤمنينَ إذا دُعُوا إلى اللهِ ورسولِه ليحْكُمَ بينَهم أَنْ يقولُوا سمِعْنَا وأطعْنَا وأولئكَ همُ المُفلحونَ**﴾[النور: ٥١].

استمع إلى هذه الآيات وإلى غيرها ـ وما أكثرها في القرآن ـ ثم انظر في واقع هذه المئات من الملايين من المنتسبين للإسلام، فماذا ترى؟ هل ترى ـ بربك ـ إلا قوماً أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات، أفئدتهم عن الله مشغولة، وصلتهم بالله مقطوعة: ﴿**بأْسُهُم بينَهم شديدٌ تحسبُهم جميعاً وقلوبُهُم شتّى**﴾[الحشر: ١٤]، استعلن فيهم المنكر، واستخفى المعروف، بل صار فيهم المعروف منكراً والمنكر معروفاً، بل أصبح فيهم من يأمر بالمنكرن ومن ينهى عن المعروف.

ثم ارجع البصر كرتين في هذه الملايين الست مئة، فسترى بينها ملايين أفسدها الغلو الطائفي، وملايين أفسدها التضليل الحزبي، وملايين أفسدها الاستبداد السياسي، وملايين أفسدها الغزو الفكري، وملايين عزلها الاستعمار الشيوعي، وملايين جهلها الاستعمار الصليبي، وملايين أخرى لا هم في

العير ولا في النفير، في غفلة هم لاهون، وفي غمرة ساهون ﴿**أموات غيرُ أحياءٍ ومَا يشعرونَ أيَّان يُبْعَثُونَ**﴾[النحل: ٢١].

هل تستطيع بعد ذلك إلا أن تقول ما قاله الشاعر قديماً[١] :

ما أكثر الناس، بل ما أقلهموا! الله يعلم أني لم أقل فندا!
إني لأفتح عيني حين أفتحها على كثير ولكن لا أرى أحدا !

قال صاحبي: صدقت في كل ما ذكرت، ولكن، ألسنا أقرب إلى المؤمنين الصادقين من اليهود؟ فلماذا انتصروا، ولماذا غلبنا[٢] .

قلت: إن اليهود انتصروا بقدر ما اعتبروا بسنن الله في الخلق، والاعتبار بسنن الله جزء هام من الإيمان، وقد ضيعناه نحن، وحفظوه هم، لقد استيقظوا ونمنا، وتعلموا وجهلنا، وجدوا وتخلفنا، وتعاونوا وتخاذلنا، وأعدوا العدة للغد، ونسينا نحن واجب اليوم، وبذل القوم العرق والدم، ولم نبذل نحن غير الدمع، فأي الفريقين في هذا الموقف أقرب إلى منطق الإيمان الحق؟

إن سنن الله في الرقي والهبوط، والنصر والهزيمة، لا تظلم أحداً، ولا تحابي أحداً، من أخذ بأسباب النصر ظفر به ولو كان يهودياً، ومن سلك طريق الهزيمة أدركته ولو كان إلى الإسلام منتسباً.

هل أضرب لك مثلاً بالمسلمين في معركة أحد؟ لقد غلطوا غلطة دفعوا ثمنها سبعين شهيداً، فيهم حمزة عم الرسول ﷺ، ومصعب بن عمير، وسعد ابن الربيع، وأنس بن النضر، وغيرهم من المؤمنين الأبطال، ولم يغن عنهم أن

(١) هما لدعبل الخزاعي، انظر: (شعر دعبل بن علي الخزاعي)، تحقيق: عبد الكريم الأشتر.

(٢) في سنة ١٩٤٨م فقد كتبت هذه الكلمة قبل حرب ٥ حزيران (يونيو) ١٩٦٧م بسنين طويلة.

قائدهم رسول الله ﷺ، وأن أعداءهم عباد الأوثان..

وسجل ذلك القرآن، وهو الحكم العدل، على المسلمين فقال: ﴿**أَوَ لَمَّا أَصابَتكُم مصيبةٌ قد أَصَبْتُم مثلَيْهَا قلتُم أَنَّى هذا قلْ هو مِن عندِ أنفسِكُم إِنَّ اللهَ على كلِّ شيءٍ قديرٌ**﴾[آل عمران: ١٦٥] .

ثم قلت لصاحبي: هل تريد أن أزيدك إيضاحاً؟

اقرأ معي هذه الآيات الكريمة: ﴿**يأَيُّها الذينَ آمنوا خُذُوا حِذْرَكُم فانفِرُوا ثباتٍ أو انفِرُوا جميعاً**﴾[النساء: ٧١]، ﴿**وأَعِدُّوا لَهُمْ ما استَطَعْتُمْ مِن قوَّةٍ ومِن رباطِ الخيلِ ترهبون به عدوَّ اللهِ وعدوَّكُم**﴾[الأنفال: ٦٠]، ﴿**يأيُّها الذينَ آمنوا إذا لقيتُم فئةً فاثبُتوا واذكرُوا اللهَ كثيراً لعلَّكُم تفلحون ۞ وأطيعوا اللهَ ورسولَه ولاتَنازَعُوا فتفْشَلُوا وتَذهَبَ ريحُكُم واصبِروا إِن اللهَ معَ الصابرينَ**﴾[الأنفال: ٤٥-٤٦].

هل عملنا بهذه الآيات؟ إننا لم نأخذ حذرنا، بل أخذنا على غرة، وفوجئنا بمخططات الصهيونية العالمية تواجهنا، ونحن في غفلة من أمرنا .. ولم نعد ما استطعنا من قوة، إلا ما اشترينا من أسلحة فاسدة، ترتد إلى الضارب قبل أن تتجه إلى المضروب ... وهكذا غفلنا عن أسلحتنا وأمتعتنا فمالوا علينا ميلة واحدة، كما ذكر القرآن الكريم(١) .

ولما لقينا عدونا لم نثبت كما أمر الله الذين آمنوا، ولم نذكر الله كثيراً - بل ولا قليلاً ــ ولم نطع الله ورسوله،بل ذهبنا نرفه عن الجنود بالغناء

١(١) إشارة إلى قوله تعالى في سورة النساء: ﴿ود الذين كفروا لو تغفُلون عن أسلحتِكُم وأمتعتِكُم فيميلونَ عليكم ميلةً واحدةً﴾ الآية ١٠٢.

الماجن، والرقص الخليع، ولم نحذر ما نهى الله عنه من التنازع، ففشلنا، وذهبت ريحنا.

فكيف بعد ذلك نضع أنفسنا في عداد المؤمنين الذي عناهم القرآن؟ وكيف ننتظر ما وعد الله، ولم نف بما شرط الله؟!

إنه لمجون منا أن نطلب نصر الله ونحن لم ننصر الله، وأن نطلب منه جزاء المؤمنين، ولا نطلب من أنفسنا أوصاف المؤمنين؟ إن علينا أن نصدق الله فيصدقنا الله، أعني أن نكون مؤمنين حقاً، نرضى بالله وحده رباً، وبالإسلام منهجاً، وبالرسول قدوة، والقرآن إماماً، وأن نبرأ من العبودية لغير الله في كل شيء: في عقائدنا وأفكارنا، في أخلاقنا وسلوكنا، في تشريعنا ونظم حياتنا.

بهذا الإيمان وحده نظفر بالسعادة والنصر والعزة التي كتبها الله للمؤمنين في الدنيا، فضلاً عن رضاه ومثوبته في الآخرة.

قال صاحبي: صدقت لعمر الحق، ولكن، ألا يوجد مؤمنون صالحون؟

قلت: بلى، ولا تجتمع هذه الأمة على ضلالة، ولكنهم قليل، وهم مع قلتهم مبعثرون كالحبات المتناثرة لم ينتظمها عقد، وكثير منهم أدركه اليأس من الإصلاح، فألقى السلاح، وترك الميدان للغزو الفكري الكافر الفاجر الماكر، وبعضهم اكتفى بالعويل والنواح، والبكاء على الأطلال، والاستغراق في الحوقلة والاسترجاع، دون أن يقدموا شيئاً جاداً أو عملاً إيجابياً، وبعضهم وهنوا لما أصابهم في سبيل الله، وضعفوا واستكانوا، وبعضهم .. وبعضهم ...

قال صاحبي: وما الحل إذن؟

قلت: الحل عند هؤلاء المؤمنين الصالحين.

الحل أن يتنادى هؤلاء بالعودة إلى الإسلام الصحيح، عقيدة، وشريعة، وأخلاقاً، ويذكروا بذلك قومهم، مبشرين ومنذرين، فبالإسلام وحده ينتصرون ويسودون، به وحدتهم وقوتهم، وفيه ـ دون غيره ـ عز الدنيا وسعادة الآخرة .. وأن يوحد هؤلاء جهودهم لتحرير أمتهم من الجمود القديم، والتحلل الجديد، والكفر الزاحف عليهم، سافراً حيناً، ومقنعاً أحياناً .. وأن يكون هؤلاء غيورين على علم بطبيعة عصرهم ومتطلبات زمانهم وأحوال مجتمعهم وما يتنازعه من تيارات، وما يكتنفه من مشكلات، فيواجهوها بمنطق العلماء الدارسين المتخصصين، لا بعقلية المقلدين أو المهرجين .. وأن يتسلحوا بالصبر واليقين لمقاومة تلك الموجة المادية الطاغية التي اكتسحت ديار المسلمين، وغزت عقولهم وقلوبهم بصورة مفزعة، حتى سماها داعية إسلامي كبير[1] (ردة ولا أبا بكر لها).

فإذا صبروا على حر المعركة بينهم وبين الباطل، وأيقنوا بصدق ما معهم من آيات الله، وآثروا الله ورسوله والجهاد في سبيله على كل ما يحرص الناس عليه من أهل وعشيرة ومال ووطن، استحقوا أن يجعلهم الله أئمة، ويجعلهم الوارثين، ويمكن لهم في الأرض، كما قال تعالى: ﴿**وجَعَلْنا مِنْهم أئِمَّةً يَهْدونَ بَأمْرِنا لَمَّا صَبَرُوا وكانوا بآياتِنَا يُوقِنونَ**﴾[السجدة: ٢٤].

قال صاحبي: فإذا تخلى هؤلاء المؤمنون الصالحون عن القيام بهذا

(١) هو العلامة المربي الزاهد القدوة السيد أبو الحسن علي الحسني الندوي أمد الله في عمره في خدمة الإسلام.

الواجب، ماذا يكون المصير؟

قلت: إنه مصير مخوف مرعب، حددت معالمه آية من كتاب الله وتركته آية أخرى مجهولاً مرهوباً؛ لتذهب النفس في تصوره كل مذهب، أما الآية الأولى فهي قوله تعالى: ﴿**إلاَّ تَنْفِروا يعذِّبْكُم عذَاباً أَلِيْماً ويستبْدِلْ قَوْماً غيرَكُم ولا تضرُّوه شيئاً والله على كلِّ شيءٍ قديرٌ**﴾[التوبة: ٣٩].

وأما الآية الثانية فهي قوله جل شأنه: ﴿**قلْ إِن كانَ أباؤُكم وأبناؤُكم وإخوانُكم وأزواجُكم وعشيرَتُكم وأموالٌ اقترفتموها وتجارةٌ تخشونَ كَسادَها ومساكنُ ترضونَها أحبَّ إليكم مِنَ اللهِ ورسولِه وجهادٍ في سبيلِه فتربَّصوا حتى يأتيَ اللهُ بأمرِه والله لايهدي القومَ الفاسقينَ**﴾[التوبة: ٢٤].

obeikandl.com

طريق ...لا طريق غيره

قال لي صاحبي وقد أخذ منه اليأس والغضب كل مأخذ: ما بالنا نتعثر ونتخبط ولا ننجو من هوة إلا لنسقط في مثلها أو أعمق منها؟ لقد كدت أحسب الضعف والتخلف والانحطاط أوصافاً ذاتية لنا، لا أعراضاً طارئة علينا، وكدت أكذب ما قرأته وسمعته عن تاريخنا المجيد، ومجدنا التليد .. فمالنا كالثور في الساقية، يلف ويدور والمكان الذي انتهى إليه هو الذي ابتدأ منه؟

قلت، أتدري ما سر ذلك يا صاحبي؟ سر ذلك: أننا نعالج الأمراض الخبيثة بالمسكنات الوقتية، لا بأدويتها الناجعة، ولهذا نعالج مشكلة بخلق أخرى، ونسد باباً من الشر لنفتح بابين أو أكثر، نعالج مشكلة الاقتصاد على حساب مشكلة الأخلاق، ونهتم بالرقي المادي على حساب الرقي الروحي، نعمل للتحرر من الكتلة الغربية فنقع فريسة للكتلة الشرقية، نحاول اللحاق بالغرب، فنأخذ منه ما ينفع وما يضر، وما يحب وما يكره، وما يحمد وما يعاب، ولم نفرق بين ما يصلح لنا ولا يصلح، وما ينبغي وما لاينبغي، ناسين أن الغرب نفسه يشكو آلاماً داخلية قاسية، تكاد تزهق روحه، ويعاني مشكلات إنسانية تكاد تدمر عليه حضارته وتأتي عليها من القواعد. إننا فيما ندعيه من نهضتنا وإصلاحنا أشبه بالذي يتداوى من داء بداء، أو بالذي يقضي الديون القديمة بديون جديدة، وقديماً قال الشاعر:

إذا ما قضيت الدَّين بالدين لم يكن قضاء ولكن كان غرماً على غرم

وقال آخر:

إذا استشفيت من داء بداء فاقتل ما أعلك ما شفاكا

قال صاحبي: وما العلاج إذن وهذه حالنا؟

قلت: العلاج يا صاحبي أن نهتدي إلى حقيقة أنفسنا، أن نحدد شخصيتنا، ونعرف من نحن في هذا الوجود ما رسالتنا؟ وماذا نريد أن نكون؟ فإن أردنا أن نكون مسلمين عاملنا أنفسنا وعاملنا الناس على هذا الأساس، وطلبنا الدواء لدائنا من طب الإسلام وعلاجه، وإن لم نرد أن نكون مسلمين، أعلنا ذلك في صراحة، وحددنا موقفنا من أنفسنا ومن غيرنا على هذا الأساس أيضاً.

قال صاحبي: وهل نملك إلا أن نكون مسلمين؟ إن الإسلام هو ديننا ولا شك، ولقد ولدنا مسلمين وعشنا مسلمين وسنحيا مسلمين، ونموت مسلمين ﴿**ومَنْ يبْتَغِ غيرَ الإسلامِ ديناً فلن يُقبلَ مِنْه**﴾[آل عمران: ٨٥].

قلت: إن مصيبتنا أننا نزعم الإسلام ديناً لنا كأفراد، وديناً رسمياً لبعض دولنا تنص عليه دساتيرها، ومع هذا لا نريد أن نكون مسلمين.

إننا مسلمون بأسمائنا، بشهادات ميلادنا، وبعض الشعائر التي تربط بعضنا بدينه، نحن مسلمون (رسميون) أو (جغرافيون) بحكم وجودنا في أرض الإسلام، ولكن الواقع أن حياتنا ليست إسلامية، بل هي خليط غير متجانس من الإسلام والمادية والوثنية، والتبعية الفكرية والروحية.

قال صاحبي: وماذا تطلب منا لكي نكون مسلمين حقاً؟

قلت: إذا عرفنا ما هو الإسلام عرفنا ماذا ينقصنا لنكون مسلمين.

الإسلام ـ إن كان لابد من تقسيم تعاليمه ـ شعب أربع:

١ ـ **شعبة العقائد:** من إيمان با لله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر.

٢ ـ **شعبة العبادات:** من صلاة وصيام وزكاة وحج وتلاوة ودعاء واستغفار.

٣ ـ **شعبة الأخلاق والقيم:** من العفاف والإحصان، والعدل والإحسان،

والبر والرحمة، والصدق والأمانة، والحياء والوفاء، والشجاعة والسخاء، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والتعاون على البر والتقوى، والتواصي بالحق والصبر، وإيتاء المال على حبه ذوي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل، والصبر في البأساء والضراء وحين البأس، إلى آخر ما أفاض فيه الكتاب والسنة، من أخلاق الإسلام، وشعب الإيمان، ومقامات الإحسان.

٤ ـ **شعبة النظم والشرائع**: التي قام عليها الفقه الإسلامي، وفصل العلائق القانونية بين الناس بعضهم وبعض أفراداً وأسراً وجماعات ودولاً.

فخبرني ـ بربك ـ هل راعينا تعاليم الإسلام في هذه الشعب الأربع، ونفذناها وأقمنا عليها حياتنا؟

قال صاحبي: نحن نأخذ منها وندع.

قلت: إن الذي ندعه ونتركه أضعاف الذي نأخذه ونعمل به، وكثيراً ما نأخذ القشور وندع اللباب، وما نأخذ الصورة وندع الحقيقة، ولعمري ماذا يبقى لنا من إسلامنا إذا كنا نستورد الأفكار والقيم، ونستورد الآداب والتقاليد، ونستورد الأنظمة والقوانين، لتحل محل أفكارنا وعقائدنا وآدابنا ونظمنا؟

قال صاحبي: ولكننا نسمع دائماً أن الإسلام بخير.

قلت: نعم هوبخير في نفوس جماهير المسلمين وأكثريتهم الساحقة؛ لأنه جزء أصيل من كيانهم العقلي والنفسي والحضاري، وهم يوقنون أن لا قيام لهم بدونه، ولا عزة لهم بغيره، ولا سعادة في الدنيا والآخرة إلا بالاستمساك بعروته الوثقى، وتعاليمه المثلى.

قال صاحبي: فكيف إذن انصرفوا عنه، واتخذوه مهجوراً، ونبذوه وراء ظهورهم كأنهم لا يعلمون؟؟

قلت: الحق أن الإسلام نحي عن حياة أهله قسراً، وعزل عن توجيه مجتمعهم كرهاً، بلا إرادة ولا اختيار منهم، وإنما فرض ذلك عليهم دخيل ماكر خبيث.

قال صاحبي: ولكن هذا العدو والمستعمر اللئيم قد حمل عصاه ورحل عن ديار الإسلام.

قلت: إنما رحلت جيوشه وعساكره، أما آثاره ومخلفاته الفكرية والنفسية والتشريعية والاجتماعية، فلا زالت قائمة سامقة تتحدى دين المسلمين وشريعتهم، ولا زال ربائبه وتلاميذه الذين رضعوا من لبان ثقافته،وغذوا من موائد فكره، وربوا في أحضان مدارسه، وتحت سلطان دعاته ومبشريه لا زالوا منتشرين في ديارنا، بل هم القابضون على أزمة التوجيه والقيادة الفكرية والسياسية والإدارية حتى لم يعد يُستفتى الدين إلا في مسائل الوضوء والصلاة، أو قضايا الرضاع والطلاق ونحوها.. أما سياسة الحكم، ونظام الاقتصاد والاجتماع، ومناهج التربية والتثقيف، وشؤون الدستور والقوانين، فليس للإسلام أن يفتي فيها، إلا أن يؤيد ويبارك ويدعو للمسؤولين بالنصر المبين ... وأكثر من ذلك أن الأفكار المادية المستوردة تعمل جاهدة لتطارد عقيدة (لا إله إلا الله) من ضمائر المسلمين، وتطارد آثارها في حياتهم.

قال صاحبي: وما الطريق؟

قلت: العمل الدائب بتجرد وإخلاص للعودة بالمسلمين إلى الصحيح، الإسلام كله: عقيدة وشريعة، وأخلاقاً وحضارة كاملة متميزة.

ذلك هو الطريق ولا طريق غيره.

الإسلام... دعوة إلى العلم والتقدم

في العالم الإسلامي اليوم صيحات تتجاوب أصداؤها من المحيط إلى المحيط، تنادي بالعودة إلى الإسلام، الإسلام خالصاً من الشوائب، سالماً من الزوائد، بعيداً عن الغلو والتقصير، تنادي هذه الصيحات بالإسلام وحده بلا شركة، والإسلام كله بلا تجزئة: عقيدة روحها التوحيد، وعبادة روحها الإخلاص، وأخلاقاً روحها الخير، وشريعة روحها العدل، وحضارة روحها التوازن.

ومن الناس من إذا سمع هذه الصيحات يغلي صدره غيظاً، ويتفجر قلبه حقداً؛ لأنه يكره للإسلام أن يسود، ويكره لأمته أن تقود، ويكره لمجده أن يعود. فهو عدو للإسلام، ناقم على أهله، لا يسره أن تقوى أمته من ضعف، أو تنهض من عثرة، أو تجتمع من شتات.

وهذا الصنف لا حديث لنا الآن معه، فإنه لا يرضيه شيء إلا دمار الإسلام وأهله، وما أصدق ما قال معاوية: أستطيع أن أرضي كل الناس إلا الحاسد، فإنه لا يرضيه إلا زوال نعمتي.

وقال الشاعر:

كل العداوات قد ترجى إماطتها إلا عداوة من عاداك من حسد!

وصدق الله إذ قال في مثل هؤلاء: ﴿**ما يودُّ الذينَ كَفَرُوا مِن أهلِ الكتابِ ولا المشركينَ أن يُنَزَّلَ عليكم مِن خيرٍ مِنْ رَبِّكُم**﴾[البقرة: ١٠٥].

وهناك صنف آخر، لا يحقدون على الإسلام ولا يكرهون أهله، ولكنهم

يخافون من عودة الإسلام، وكلما سمعوا التنادي بالرجوع إليه، توجست صدورهم خيفة، بل ارتعدت فرائصهم رعباً؛ لأن رؤوسهم حملت عن الإسلام فكرة خاطئة، صنعها الجهل، وضخمها الوهم، وزينها الهوى، فكرة ورثوها عن عصور التخلف، وعهود الانحطاط، صورت لهم الإسلام جبرية في العقيدة، وشكلية في العبادة، وسلبية في الأخلاق، وجموداً في الفكر، وركوداً في الحياة، فهو بهذا يعارض العلم، ويقعد عن العمل، ويعوق التقدم، ويرفض الاجتهاد، ويقتل الابتكار، ويخدر الشعوب!

الذين يحقدون على الإسلام

يقول بعض هؤلاء بصريح العبارة: أتريدوننا أن نوقف عجلة (التطور) لنجمد في مكاننا؟ وأن نوقف قطار (التقدم) لنرجع القهقرى؟

أتريدون أن نعود إلى السلبية التي تدع الأمور تجري إلى أعنتها، وتضع عبء كل انحراف أو فساد على كاهل القدر؟ وتقضي على كل مقاومة للطغيان والطغاة تحت عنوان الرضا والصبر على البلاء؟ وتشيع في الناس عبارات منومة مخدرة مثل: دع الملك للمالك، واترك الخلق للخالق! أو: الله أقام العباد فيما أراد؟!

أتريدون أن تعودوا بنا إلى عصور ترى السلاطين ظل الله في الأرض، إن أحسنوا فلهم منا الشكر، وإن اساؤوا فعلينا الصبر، وليس من حقنا أن نقول لهم: (لم) أو (لا).

أتريدوننا ونحن على مشارف القرن الحادي والعشرين أن نتراجع إلى القرن السابع من الميلاد؟

وبعبارة أخرى: أتريدوننا أن نعود إلى الوراء أربعة عشر قرناً من

الزمان؟!

أتريدوننا أن ندع عصر الذرة، و (الكمبيوتر) وغزو الفضاء والصعود إلى القمر لنرجع إلى عصر الجمل سفينة الصحراء؟!

لا اتهام بغير برهان:

والعجيب أن يقول هذا الكلام قوم يلبسون رداء (العلمية) ويُزهَون به، ومع هذا يسمحون لأنفسهم أن يستخدموا الأساليب (الخطابية) أو الإنشائية) في مقامات لا تغني فيها دعوى بلا بينة، ولا اتهام بغير برهان. إن القضايا الكبيرة لا يفيد فيها إلا القواطع، ولا تغني فيها الظنون فإن الظن لا يغني من الحق شيئاً.

ومما لا يجهله عاقل أن الزمان ــ كالمكان ــ وعاء للأحداث، أي لعمل الإنسان فيه، خيراً كان أم شراً، صواباً أم خطأ، فالزمان في ذاته لا يوصف بخيرية ولا شرية إلا من باب المجاز، كما يقول علماء البلاغة، حين يذكر المحل ويراد الحالُّ فيه.

ومن هنا ينبغي ألا يكون اهتمامنا بالمفاضلة بين زمان ماض وزمان حاضر، أو مستقبل، إنما يكون تركيزنا على ماذا كان في الماضي، وما هو كائن في اليوم، وماذا عسى أن يكون في الغد.

وأحب أن أؤكد هنا حقيقة هي أوضح من الشمس في رابعة النهار، وهي أن الإسلام ليس ماضياً، كماضي الفراعنة في مصر، أو الفينيقيين في سورية، أو البابليين في العراق، إن الإسلام هو الماضي، وهو الحاضر، وهو المستقبل، إنه كلمة الله الباقية، ومنهجه الخالد، ونوره المتجدد للبشر، إنه نور

كنور الشمس، يظهر كل يوم جديداً، ولكنه يضرب في القدم إلى غور بعيد.

أما مفهوم المسلمين لهذا الإسلام القديم الجديد، وتطبيقاتهم له خلال القرون فنحن نأخذ منها وندع، وفقاً للمعايير الموضوعية التي هدانا إليها كتاب الله وسنة رسوله، فنحن ننتقي من هذا التراث العريض الرحيب أفضل ما فيه، ونقتبس منه ما ينفعنا في ترشيد مسيرتنا، وندع منه ما نرى أنه أخطأ الحق، أو جار عن الصراط، إذ لسنا ملزمين باتباع أحد غير رسول الله ﷺ الذي ضمن الله له العصمة فيما يبلغ عنه، وكل أحد بعد ذلك يؤخذ منه ويرد عليه، كائناً من كان.

الذين يتلمسون للبراء العيب:

ومن هنا لا يجوز لعاقل منصف أن يبحث في تراثنا عن أسوأ ما فيه ثم يقول: أتريدوننا أن نرجع إلى هذا؟

قال لي بعضهم يوماً: أتريدوننا أن نعود إلى عهد الأمير الذي قال: من قال لي: اتق الله، ضربت عنقه؟!

قلت: بل إلى عهد الخليفة الذي قال: لا خير فيكم إذا لم تقولوها، ولا خير فينا إذا لم نسمعها!

ندعو إلى عهد عمر الذي قال على المنبر: رحم الله امرءاً أهدى إلى عيوب نفسي ... وقال على الملأ: من رأى منكم فيّ اعوجاجاً فليقومني.

وإلى عهد الخليفة الذي قال من قبله: إن أحسنت فأعينوني، وإن أسأت فقوموني، أطيعوني ما أطعت الله فيكم، فإن عصيته فلا طاعة لي عليكم!

وقال آخر: أتريدوننا أن نعود إلى عهد الحجاج الذي هدد الناس بالسوط يلهب الظهور، وبالسيف يقطع الأعناق، حين قال في خطبته الشهيرة: وا لله لأضربنكم ضرب غرائب الإبل ... وإني لأرى رؤوساً قد أينعت وحان قطافها، وإني لصاحبها!

قلت: ومَن دعاة الحل الإسلامي يؤيد طغيان الحجاج أو يبارك عودة مثله، وهم لم يذوقوا الصاب والعلقم إلا من الطغاة والجبارين من (حجاجي) هذا العصر؟! وإن كان الحجاج أشرف من هؤلاء خصومة، وأنبل سيرة بيقين!

ولماذا لا نقول: إننا نريد العودة إلى عهد عمر بن عبد العزيز الذي قال للناس عندما ولي الخلافة: إنما أنا واحد منكم، غير أن ا لله جعلني أثقلكم حملاً!

والواقع أننا وجدنا من دعاة (العلمانية)، و (التقدمية) من نصب نفسه محامياً عن جبروت الحجاج، وصب جام سخطه على عمر بن عبد العزيز، الذي اعتبره أئمة الإسلام خامس الراشدين!

الحل الإسلامي . . ندعو إلى حوار علمي:

إننا ندعو هؤلاء المرتابين في الحل الإسلامي، المتوجسين خيفة من العودة إلى الإسلام، ندعوهم إلى حوار علمي هادف هادئ، حوار بيننا وبينهم، أعني أنه حوار بين طرفين لكل منهما حقه في التعبير عن نفسه، والدفاع عن وجهة نظره، وليس حواراً من طرف واحد، كالذي دعا إليه بعضهم على صفحات إحدى الصحف الكبرى، في بعض البلدان العربية، حول تطبيق الشريعة الإسلامية، فصالوا وجالوا كما يشاؤون، دون أن يؤذن للأقلام المعارضة أن تكتب، إلا في إطار محدود، ولنوع معين من الناس، فليت شعري ما قيمة

مبارزة لا يسمح فيها للخصم بالنزول إلى الميدان؟ وما معنى سباق يعدو فيه جواد واحد؟!

لن نصنع كما صنعوا، بل نناديهم بملء أفواهنا أن تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم، تعالوا نبحث بحثاً موضوعياً منصفاً، بعيداً عن التعصب للقديم أو التعبد للجديد.

تعالوا نحلل مضمون الدعوة إلى الإسلام: ما هو؟ وما فحواه؟ أهو عودة بالإنسانية إلى الوراء؟ أم انطلاقة بها إلى الأمام؟ أهو دعوة إلى الجهل والتخلف أم دعوة إلى العلم والتقدم؟ إن كل من عرف الإسلام عرف أنه دين العلم والحضارة، وكل من قرأ القرآن أيقن أنه خطاب: ﴿**لأُولي الأَلْبَابِ**﴾[آل عمران: ١٩٠]، وآيات ﴿**لقومٍ يَعْقِلُونَ**﴾[النحل: ١٢]، وهدي ﴿**لقَومٍ يتفكرون**﴾[الرعد: ٣]، وأن المؤمنين هم (أولو النهى) و (العلم)، والكفار به قوم ﴿**لايفقَهوْنَ**﴾[الأنفال: ٦٥]، و ﴿**لايَعْقِلُون**﴾[البقرة: ١٧٠]، ﴿**إنْ هُمْ إلاَّ كالأَنْعامِ بلْ هُمْ أَضَلُّ سَبيلاً**﴾[الفرقان: ٤٤].

ليس في العالم دين كالإسلام أودع الله فيه من السعة والمرونة، وأسباب القوة، وعناصر الخلود، ما تصلح به الحياة، ويرقى بهدايته الإنسان في كل زمان ومكان، على الرغم من تطور المجتمعات، وتقلب الأحداث، وتغير المعارف والأفكار.

ذلك أن شارع هذا الدين هو خالق هذا الإنسان، فمن المحال أن يشرع هذا الخالق من الدين ما يعوق الإنسان عن الحركة والتحرر والترقي، إلا أن يكون هذا الخالق على غير علم بما يسود هذا الكون من قوانين، وما يحكم

فطرة هذا الإنسان من سنن، أو يكون علىعلم بذلك، ولكنه لايريد للإنسان الرقي والتقدم والخير. وتعالى الله ﴿العَلِيمُ الحَكِيمُ﴾[يوسف: ٨٣، ١٠٠]، ﴿البَرُّ الرَّحِيمُ﴾[الطور: ٢٨] عن هذا وذاك.

الدين الحق ليس ضد التطور:

إن الدين الحق لا يمكن أن يقف ضد التطور النافع، وإذا كان التاريخ قد سجل على بعض الأديان ورجالها وقوفها في وجه هذا التطور، فذلك لأنها لم تعُدْ دين الله الحق، بل حرفت وبدلت، وفقدت أصالتها وسموها، وكانت أدياناً موقوتة،فلم يتكفل الله بحفظها.

وأبرز مثل لذلك: المسيحية في الغرب، فقد وقفت الكنيسة هناك تؤيد الجهل ضد العلم، والخرافة ضد الفكر، والملك ضد الشعب، والقوي ضد الضعيف، فلما أدرك الغرب قبس من النور، جاء في الأصل من الشرق المسلم؛ تمردت عليها الجماهير الثائرة على الظلم والظلام، وحكمت على رجال الكهنوت، حكمها على رجال الظلم والجبروت فقالوا: اشنقوا آخر ملك بأمعاء آخر قسيس!!

أما الإسلام فقد شاء الله أن يكون هو الرسالة العامة الخالدة للإنسانية كلها بعد أن بلغت أشدها، واستحقت أن ينزل عليها هذه الرسالة، فلا عجب أن قامت منذ أول يوم على احترام العقل والفكر، والإنكار على التقليد والجمود والدعوة إلى العلم والحكمة، والاحتكام إلى البرهان والحجة، والإشادة بفضل العلم وأهله، والرجوع إلى ذوي المعرفة والخبرة، والترغيب في العمل والحركة، والترهيب من القعود والبطالة.

ولا عجب أن نجد كتاب الإسلام الخالد ـ القرآن الكريم ـ يحدثنا ـ في قصة أبي البشر ـ عن العلم باعتباره المؤهل الأول للخلافة في الأرض،وبه تفوق آدم على الملائكة.

ويحدثنا في قصة نوح عن صناعة السفن .. وفي قصة داود عن إلانة الحديد وصناعة الدروع .. وفي قصة سليمان عن صناعة الجن له ما يشاء.

ويحدثنا عن التخطيط الاقتصادي ـ لمدة أربع عشرة سنة ـ في قصة يوسف.

كما يحدثنا في قصة ذي القرنين عن صناعة السدود الضخمة .. ويحدثنا عن منافع الحديد العسكرية والمدنية في سورة خاصة تحمل اسم (الحديد).

كما نجد رسول الإسلام يقر نتائج الملاحظة والتجربة في شؤون الحياة، وإن خالفت رأيه الشخصي، كما في مسألة تأبير النخل، وهي التي قال فيها: «أنتم أعلم بأمر دنياكم»(١).ونجده لذلك يستخدم الإحصاء لمعرفة القوة البشرية المسلمة معه معرفة دقيقة قائمة على التعداد لا على التقريب والتخمين، وهذا ما رواه البخاري ومسلم.

ونجده يحارب الأمية ـ وهو النبي الأمي ـ حتى إنه ليفدي الأسير المشرك الكاتب إذا علم عشرة من أبناء المسلمين الكتابة.

ونجده يحارب الخرافات ومروجيها فيعلن حرباً على السحرة والكهنة والعرافين، وعلى من يصدقهم أو يسمع لهم، ويتداوي ويأمر بالتداوي قائلاً:

---

(١) رواه مسلم من حديث أنس من كتاب الفضائل (١٤١/٢٣٦٣).

«تداووا يا عباد الله فإن الله ما أنزل داء إلا أنزل له شفاء»(١) .

ونجده يقاوم الجبرية والسلبية في مواجهة الأمور، داعياً إلى العمل الحذر، واتخاذ الأسباب: «اعقلها وتوكل»(٢) ، ولما سئل عن الأسباب: هل ترد من قدر الله شيئاً؟ قال: «هي من قدر الله»(٣) .

فلا عجب أن قامت في ظل هذا الدين دول مترامية الأطراف ورثت أعظم إمبراطوريتين في الأرض، أسسها أصحاب رسول الله ﷺ على أمتن الأسس وأقوى الدعائم، الجامعة بين الدين والدنيا، وترعرعت تحت سلطانه حضارة شامخة البنيان، عالية الأركان، استفادت من تراث السابقين، وهذبت منه، وحسنت فيه، وأضافت إليه من جهدها وابتكارها، ولم تجد في الدين ما يعوق سيرها، أو يؤخر تقدمها، بل وجدت فيه الدافع الذي يحفزها أن تضاعف السعي والحركة، والضمان الذي يمسكها أن تضل أو تنحرف عن الطريق، ولا غرو أن قال الفيلسوف المؤرخ الفرنسي جوستاف لوبون: إن

(١) رواه أحمد في مسنده من حديث أسامة بن شريك ٤/٢٧٨، وأبو داود في كتاب الطب (٣٨٥٥)، والترمذي في الطب (٢٠٣٨) وقال: وفي الباب عن ابن مسعود وأبي هريرة وأبي خزامة عن أبيه وابن عباس وهذا حديث حسن صحيح.

(٢) رواه الترمذي من حديث أنس بن مالك في كتاب صفة القيامة (٢٥١٧) وقال: حديث غريب من حديث أنس لا نعرفه إلا من هذا الوجه، وقد روي عن عمرو بن أمية الضمري عن النبي ﷺ نحو هذا.

(٣) رواه الترمذي من حديث أبي خزامة عن أبيه في كتاب الطب (٢٠٦٥)، وقال: حسن صحيح، وفي كتاب القدر (٢١٤٨)، وقال: لانعرفه إلا من حديث الزهري، وقد روى غير واحد هذا عن سفيان عن الزهري عن أبي خزامة عن أبيه، وهذا أصح، وابن ماجه في الطب (٣٤٣٧).

العرب هم أول من علم العالم كيف تتفق حرية الفكر مع استقامة الدين!

ترى هل نحن ـ بعد ذلك ـ في حاجة إلى أن نسأل: ما موقف الإسلام من الحضارة أو التطور؟ أو العلم والتقدم؟

obeikandl.com

كافحُوا الأميَّة

إن من المحزن المؤسف أن تكون نسبة (الأمية) في بلاد المسلمين تقارب الثمانين في المئة ٨٠٪، وأن يوضع العالم الإسلامي كله في دائرة البلاد النامية، وهو تعبير مهذب عن البلاد المتخلقة! أو ما يسمونه (العالم الثالث)، بل هناك بعض الأقطار ربما تهبط لتكون وحدها (عالماً رابعاً)!

وإن من أكبر العار على المسلمين أن يظلوا على حالهم تلك من الأمية والتخلف، ودينهم أعظم حافز على التعلم والتقدم، وهو يهيئ لهم من الأسباب المادية والاجتماعية، ومن المناخ العقلي والنفسي ما يخرجهم من الجهل إلى العلم، ومن البداوة إلى الحضارة، ومن الظلمات إلى النور.

لقد كان الإسلام ـ فيما نعلم ـ أول دين أعلن الحرب على الجهل والأمية، ودعا إلى التعلم، ورفع مكانة العلم وأهله.

وحسبنا أن الرسول ﷺ قال: «طلب العلم فريضة على كل مسلم»(١) .

وحسبنا أن أول آيات نزلت من القرآن على قلب النبي الكريم كانت إشادة بفضل القراءة والقلم، والعلم والتعليم بالقلم: ﴿**اقرَأْ باسمِ ربِّكِ الَّذِي خلقَ ۞ خلقَ الإِنسانَ مِن عَلَق ۞ اقرأ وربُّكَ الأكرمُ ۞ الذي علَّمَ بالقَلَمِ ۞ علَّمَ الإِنسانَ ما لم يعلَمْ**﴾[العلق: ١-٥].

---

(١) رواه ابن ماجه وغيره عن أنس، ولم يرد في نص الحديث «مسلمة»؛ لأن المقصود: على كل إنسان مسلم ذكراً أو أنثى، بإجماع العلماء، وصححه الحافظ السيوطي وغيره، كما صححه العلامة الألباني في تخريج أحاديث كتابنا: (مشكلة الفقر وكيف عالجها الإسلام؟) ط. المكتب الإسلامي.

وكانت السورة الثانية في تاريخ نزول القرآن هي سورة (القلم)، وإنما سميت بذلك؛ لأن الله أقسم فيها بالقلم وما يسطره به الكاتبون من علم وحكمة، قال تعالى: ﴿ن والقلَمِ وما يَسْطُرُونَ﴾[القلم: ١] ، وأول ما يسطر به هو القرآن الكريم الذي سماه الله (الكتاب) إيماء إلى هذا المعنى.

وقد جرت سنة الله في القرآن: أنه يقسم بالشيء، تنبيهاً على عظيم منفعته، ولفتاً لأنظار الخلق إليه، وأي شيء أعظم نفعاً من (القلم) مذيع العلم ومثبته، وناقله إلى الأجيال، وهل المطبعة في عصرنا إلا (قلم تطور) فإذا هو يملأ الدنيا علوماً ومعارف، وثقافة وحضارة؟

إن تمجيد القلم في القرآن وإقْسام الله به حث للمسلمين على أن يحسنوا الكتابة به، وبخاصة أن الإسلام يأمر المسلم بالكتابة في عدة أمور:

منها: كتابة الدَّيْن: ﴿إذا تَدَايَنْتُم بدينٍ إلى أجلٍ مسمًّىً فاكْتُبُوْه﴾[البقرة: ٢٨٢] .

ومنها: كتابة الوصية كما في الحديث: «حق على كل امرئ مسلم ألا يبيت إلا ووصيته مكتوبة عنده» كما جاء في حديث البخاري وغيره[١] .

كما روي عن النبي ﷺ: «حق الولد على الوالد أن يعلمه الكتابة والسباحة والرمي»[٢] .

ومن عجب أن النبي الأمي الذي لم يكن يتلو من كتاب، ولا يخطه بيمنيه

(١) رواه البخاري من حديث عبد الله بن عمر في كتاب الوصايا (٢٧٣٨)، والنسائي في الكبرى في الوصايا (٥/٦٤٤٢).

(٢) رواه ابن حبان عن عائشة في كتاب الضعفاء.

حتى لا يرتاب المبطلون، لم يقتصر على الحث النظري والترغيب في تعلم القراءة والكتابة، بل جاهد عليه السلام أن يدبر الوسائل العملية لنشر التعليم، ومحاربة الأمية ما وجد إلى ذلك سبيلاً.

ومن هذه الوسائل الرائعة انتهازه فرصة وقوع عدد من أسرى قريش المشركين في غزوة بدر في أيد المسلمين، وكانوا يحسنون الكتابة، ولا يملكون مالاً ليفدوا أنفسهم، فاشترط النبي ﷺ لفدائهم أن يعلم كل منهم عشرة من أولاد المسلمين الكتابة.

روى الإمام أحمد في مسنده عن ابن عباس ــ رضي الله عنهما ــ قال: كان ناس من الأسرى لم يكن لهم مال، فجعل رسول الله ﷺ فداءهم أن يعلموا أولاد الأنصار الكتابة(١) . فكان هذا أول مشروع ينظمه رئيس الدولة لإعلان الحرب على الأمية في تاريخ هذه الأمة، بل لعله في تاريخ البشرية كلها، وكان من الذين استفادوا من هذا المشروع من أبناء الأنصار: الفتى العبقري: زيد بن ثابت، كاتب الوحي، وجامع القرآن بعد ذلك، والذي كلفه الرسول الكريم تعلم لغة (يهود) حتى يقرأ له رسائلهم إليه ﷺ، ويكتب له رسائله إليهم.

وحين انتشر العلم في أوساط المسلمين، اتجه الرسول ﷺ إلى فرض التكافل بين المسلمين في هذا الجانب، كما فرضه في الجانب المادي المعيشي، فالعالم عليه أن يعلم الجاهل، والقارئ عليه أن ينور الأمي ويأخذ بيده.

روى الطبراني في الكبير عن بكير بن معروف عن علقمة بن سعيد بن

(١) أحمد ١/٢٤٧، وقال العلامة أحمد شاكر: إسناده صحيح ٤/٤٧ (٢٢١٦).

عبد الرحمن بن أبزى عن أبيه عن جده، قال: خطب رسول الله ﷺ ذات يوم فأثنى على طوائف من المسلمين خيراً، ثم قال: «ما بال أقوام لا يفقهون جيرانهم ولا يعلمونهم ولا يعظونهم ولا يأمرونهم ولا ينهونهم؟ وما بال أقوام لا يتعلمون من جيرانهم ولا يتفقهون ولا يتعظون؟ والله ليعلمن قوم جيرانهم ويفقهونهم ويعظونهم ويأمرونهم وينهونهم، وليتعلمن قوم من جيرانهم ويتفقهون ويتعظون أو لأعاجلنهم العقوبة».

ثم نزل رسول الله ﷺ فقال قوم: من ترونه عني بهؤلاء؟ قال: الأشعريين هم قوم فقهاء، ولهم جيران جفاة من أهل المياة والأعراب، فبلغ ذلك الأشعريين فأتوا رسول الله ﷺ فقالوا: يا رسول الله، ذكرت قوماً بخير، وذكرتنا بشر، فما بالنا؟ فقال: «ليعلمن قوم جيرانهم وليعظنهم وليأمرنهم ولينهونهم، وليتعلمن قوم من جيرانهم ويتعظون ويتفقهون، أو لأعاجلنهم العقوبة في الدنيا»، فقالوا: يا رسول الله أنفطن غيرنا؟ فأعاد قوله عليهم، فأعادوا قولهم، أنفطن غيرنا؟ فقال ذلك أيضاً، فقالوا: أمهلنا سنة، فأمهلهم سنة ليفقهونهم ويعلمونهم ويفطنونهم، ثم قرأ رسول الله ﷺ هذه الآية: «**﴿لُعِنَ الذينَ كفرُوا مِن بين إسرائيلَ على لِسانِ داودَ وعيسى ابنِ مريمَ ذلك بما عَصَوْا وكانوا يَعْتَدونَ ۞كانوا لايَتَنَاهَوْنَ عن مُنكَرٍ فَعَلُوه لَبِئْسَ ما كانوا يَفْعَلُونَ﴾**»(١).

ويعلق الدكتور الشيخ مصطفى السباعي رحمه الله على هذا الحديث

(١) الآيتان ٧٨، ٧٩ من سورة المائدة، والحديث لا بأس بإسناده، وموثقوا بكير بن معروف أكثر من مجرحيه، وانظر تعليقنا على الحديث رقم (٨٢) من (المنتقى) من الترغيب والترهيب. ط. دار الوفاء.

فيقول: وإنك لترى في هذا الحديث من الحقائق ما يجدر التنبيه إليها:

١ ـ فالرسول عليه السلام لم يقر قوماً على الجهالة بجانب قوم متعلمين.

٢ ـ واعتبر بقاء الجاهلين على جهلهم، وامتناع المتعلمين عن تعليمهم عصياناً لأوامر الله وشريعته.

٣ ـ واعتبر ذلك أيضاً (عدواناً) و (منكراً) يوجبان اللعنة والعذاب.

٤ ـ أعلن الحرب والعقوبة على الفريقين حتى يبادروا إلى التعلم والتعليم.

٥ ـ وأعطاهم لذلك مهلة عام واحد للقضاء على آثار الجهالة فيما بينهم.

٦ ـ ولئن كانت: الحادثة قد وردت بشأن الأشعريين العلماء وجيرانهم الجهلاء، فإن الرسول ﷺ أعلن ذلك المبدأ بصفة عامة، لا بخصوص الأشعريين وحدهم، بدليل أن الأشعريين لما جاؤوا يسألونه عن سر تخصيصهم بهذا الإنكار كما فهم الناس، لم يقل لهم أنتم المرادون بذلك، بل أعاد القول العام الذي سلف ثلاث مرات دون أن يخصصه بالأشعريين، إشعاراً بأن القضية قضية مبدأ عام غير مخصوص بفئة ولا عصر معين.

وبذلك يكون الرسول ﷺ قد أعلن مكافحة الأمية قبل أن تعلنه الدول المتحضرة في عصرنا هذا بأربعة عشر قرناً، وإن هذا لعجيب أن يصدر من نبي أمي في بيئة أمية لولا أنه رسول الله ﷺ.